إسهامات ابن خلدون في رفد علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بمفاهيم لغوية

أ. رائد محمد طه
أستاذ علم الاجتماع بجامعة القدس المفتوحة
محاضر غير متفرغ

مقدم الى مؤتمر
"ابن خلدون : علامة الشرق والغرب"
كليه الاداب / جامعة النجاح الوطنية
فلسطين

2012

مقدمه:

ما جعلنا نهتم بالبحث في مقدمة ابن خلدون، ودراسة أرائه وأفكاره، والاجتهاد في تحديد مفاهيم علمه الاجتماعي. ذلك لأن ابن خلدون هو المؤسس الأول لعلم الاجتماع في العالم أجمع. فقد سبق في ذلك (أوجست كونت) الذي يعده الغربيون أول مؤسس لعلم الاجتماع.

إن الأساس الذي انطلق منه ابن خلدون لم يكن أساسا فلسفيا ، كأفلاطون مثلا، يتحدث دائما عما ينبغي أن يكون في جمهوريته الفاضلة، أو عن مجتمع مثالي تخيله، وتخيل له تنظيما معيناً. بل منهجه (المنهج الواقعي). فلم تكن النزعة الواقعية التحققيه مألوفة عند معالجة العلوم الإنسانية والظاهرات الاجتماعية من قبله .

والشيء الذي يستحق الذكر في هذه المناسبة التاريخية، وهى مرور ستمائة عام على كتابه المقدمة، التي أرسى فيها ابن خلدون ، دعائم علماً جديداً مستقلاً، وهو والعمران البشرى – الاجتماع الانسانى–عرف بكتاب العبر.(الساعاتى:1972،ص17) و قدم ابن خلدون كتاب العبر هذا بمقدمته علمية ضخمه، هي الجزء الأول من ذلك الكتاب الذي احتوى على سبعة أجزاء،(الشامى:2011،ص11) له موضوع، ومسائل، ومنهج، وأسلوب.وإضافات فكرية وعلمية أسهمت في ظهور علم الاجتماع واستقلاليته عن العلوم الأخرى وتكامل موضوعاته وقابليته في تحليل الظواهر والعمليات الاجتماعية في علاقة علم الاجتماع في التاريخ وفلسفة التاريخ وتفسير حقيقة الاجتماع البشرى ونظم ومؤسسات المجتمع وتقسيم المجتمعات البشرية، والتغير الاجتماعي، و منهجية علم الاجتماع(الساعاتى:1972،ص22).

وما يدعو إلى الدهشة وللأسف أن البناء النظري الذي وضعة ابن خلدون لم يجد في العالم العربي من يهتم بمؤلفاته، حسب تعليق جاستون بوتولGaston Bouthoul "لو وجدت في ظروف أخرى لكانت نقطة ابتداء لمدرسة كاملة".(حامد:1998،ص29)

كما أنه لم يذكر ابن خلدون كثيرا في كتابات الغرب إلا ما نذر رغم معرفتهم به ، ويظهر بجلاء عند المفكرين والباحثين الذين اهتموا بمجتمعات وثقافات الشرق الأوسط مثل فوارسنت جلنرE.Gellner " اتخذ من كتابات وتعميمات ابن خلدون إطارا لدراسته للمجتمع المغربي العربي.

(حامد:1998،ص9)، كما أن عالم الاجتماع النمساوي الشهير جمبلوفتش:أنصف ابن خلدون من خلال قولة "لقد أردنا أن ندلِّلَ على أنه قبل أوجست كونت، بل قبل فيكو الذي أراد

الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوربي، جاء مسلم تقى، فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن، وأتى في هذا الموضوع بآراء عميقة، وإن ما كتبه هو ما نسمِّيه اليوم علم الاجتماع"(الشكعة:198).

فابن خلدون يُمثل نقطة تحول في كتابة التاريخ الإنساني، وفي تأسيسه لعلم الاجتماع، قد هز الفكر الإنساني العالمي بذلك؛ إذ وضع مفاهيم جديدة وآراء جديدة، بل وضع قوانين جديدة يمكن تطبيقها، وتنسحب على كل المجتمعات البشرية، انطلاقًا من أن الإنسان لا يعيش إلا في مجتمع، وإذا عاش في مجتمع؛ فلا بد أن يعيش مع شعب، وإذا عاش مع شعب لا بد أن يعيش على أرض، ولكي تظل العلاقة قائمة بين هؤلاء الناس، أو القبائل، أو الشعب، أو هذه المجموعة البشرية؛ لابد من أن ينظمها حاكم؛ وأنواع الحاكم تدرجت من حاكم بسيط (شيخ قبيلة) إلى حاكم مطلق، استطاع أن يستخدم كل الوسائل التي هيأها له هذا التجمع البشري، أو هذا العمران، واستطاع أن يستغل هذا ويصبح هو الحاكم المطلق، وإذا أصبح حاكمًا مطلقًا استطاع أن يؤسس دولة، فإذا أسس الدولة التي طبق عليها ابن خلدون نظريته؛ مرت الدولة بمراحل مختلفة(العابدين:1424هـ،ص75).

ولما كنا نهتم أساسا بتوضيح ما يتعلق بالمفاهيم التي اثري بها ابن خلدون علمين من العلوم الإنسانية، هما: علم الاجتماع والأنثروبولوجيا، والتي ارتبط أحدهما باسمه ويعرف علم الاجتماع ؛ الذي يدرس أسباب وواقعات ، وطبيعة قيام العمران البشرى (المجتمع)، (الشامى:2011،ص11)، كما إن اهتمامنا بالمفاهيم الانثروبولوجية لابن خلدون لأنه درس البناء الاجتماعي ككل وليس كنظم منفصلة على ضوء التساند والاعتماد المتبادل القائم بين مختلف النظم والأنساق الاجتماعية. وعليه فقد جاء هذا البحث بعنوان: "إسهامات ابن خلدون في رفد علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بمفاهيم لغوية".

ومن ثم فالبحث سوف يعتمد على كتابات ابن خلدون حيث يتم في ضوئه دراسة المفاهيم وتحليل قضاياه وفق المنهج العلمي الوصفي التحليلي الذي نأمل أن يؤدى إلى فهم واضح لذا البحث. ووفق هذا المنهج يأتي البحث في مقدمه، وخاتمة، وثلاث مباحث، يتناول الأول: ابن خلدون رائد علم الاجتماع ، بينما المبحث الثاني فيعرض للمفاهيم الخلدونية منها :علم العمران، ومفهومه وهدفه وموضوعة، ومفهوم العصبية والنسب والالتحام و السلطة و العلاقات القرابية، والبداوة والحضر...الخ من هذه المفاهيم التي سنبينها فى هذا البحث. والمبحث الثالث يتضمن مناهج البحث العلمية الخلدونية.

المبحث الاول: ابن خلدون رائد علم الاجتماع والانثروبولوجيا:

1- نسب ابن خلدون:

هو أبو زيد ولى الدين عبد الرحمن بن خلدون، وقد ولد في مدينة تونس عام (1332)م، وتوفى بمصر عام (1406)م، ينتسب إلى أسرة عربية يمنية بحضرموت، وقد تولى كثيرا من الأعمال السياسية، واتصل بسلاطين المغرب واسبانيا، رفعته السياسة حتى وصل وزيرا، وخفضته حينا حتى سجن, فسئم العمل السياسي واعتزله سبع سنوات من 776هـ =1282م، قضى أربع سنوات منها في قلعة ابن سلامة، وفيها كتب مقدمته المشهورة، ثم رحل إلى القاهرة وتولى القضاء فيها، وظل بها إلى أن مات. (الشامى:2011، ص11+12).

2- مقدمة ابن خلدون:

اشتهر ابن خلدون بمقدمته التي هي جزء من كتابه الذي ألفه في التاريخ وسماه "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر"(الشامى:2011،ص13) وينقسم هذا المؤلف إلى مقدمة وثلاث كتب ويمكن تصنيفها كتالي :

1- المقدمة: في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه، وأسباب أخطاء المؤرخين . مرجعا أسباب أخطائهم إلى أنهم لم يحاولوا دراسة المجتمعات وما يسودوها من قوانين لذلك وضع لهم أسس دراسة المجتمعات.
2- الكتاب الثاني: في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ بدء الخليقة حتى القرن الثاني الهجري.
3- الكتاب الثالث: في أخبار البربر ومن إليهم وأجيالهم ودولهم.

3- علم العمران البشرى ومفهومه:

علم استنبطه وابتكره العلامة ابن خلدون وعلى حد قولة، ألهمنى الله إلى ذلك إلهاما،"واخترعته من بين المناحى مذهباً عجيباً وطريقة مبتدعه وأسلوبا"(المقدمة:ص40)ويقول: "وبعد أن استوفيت علاجه وأنرت مشكاته للمستبصرين وأذكيت سراجه وأوضحت بين العلوم طريقه ومنهاجه وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه وأدرت سياجه(المقدمة :ص16) فأنشأت في

التاريخ كتابا رفعت به عن أحوال الناشئة من الأجيال حجابا وفصلته في الأخبار والاعتبار بابا بابا وأبديت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا وبنيته على أخبار الأمم الذين عمروا المغرب في هذه الأعصار وملأوا أكناف الضواحي منه (المقدمة:ص22).

أما في مفهوم ابن خلدون للعمران: فهو علم يبحث ويوضح أحوال العمران والتمدن، وما تخضع له ظواهر الاجتماع الإنساني من قوانين ثابتة فيقول: "...وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن، وما يعرض في الاجتماع الإنساني من العوارض الذاتية، وما يمتعك بعمل الكوائن وأسبابها...".

ويقول أيضاً:

"... فإذن هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني, ألامم لكل وجودهم وما أراده الله من اعتماد العالم بهم واستخلافهم إياهم, وهذا معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم (ألمقدمه:ص38).

يقصد به "الاجتماع الانسانى", ويعنى التساكن والتنازل في مصر أو حله "خيمة أو قرية في أي محل الإقامة" للأنيس بالمشعر واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم (البشر) من تعاون على المعاش.ويقسمه إلى قسمين العمران البدوي:وهو الذي يكون في الضواحي وفى الجبال وفى الحلل المنتجعة فى القفار وأطراف الرمال. والعمران الحضري: وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن والمدائر (حامد:107،1998).

ويعرفه آخرون عند ابن خلدون، بأنه العلم الذي يدرس أسباب قيام العمران البشرى(المجتمع)، وواقعات العمران البشرى، وطبيعة العمران . تأنس وتوحش وعصبية)، وكيفية قيام الملك والدولة، والتغيرات التي تطرأ على العمران البشرى، دراسة علمية تحليلية(الشامى:2011،ص11).

أما موضوعات هذا العلم ومسائلة فانه حددها، إذ يقول:

"وكأن هذا علم مستقل بنفسه، فانه ذو موضوع، وهو العمران البشرى والاجتماع الانسانى، وذو مسائل وهى بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته، واحدة بعد الأخرى. وهذا شان كل علم من العلوم، وضعيا كان أو عقليا" فهو إذن ما يطلق عليه ابن خلدون "بواقعات العمران البشري" أو "أحوال الاجتماع الإنساني",أو ما يسمى اليوم بالظواهر الاجتماعية(ألمقدمه:ص38).

من خلال ما سبق يتضح أن ابن خلدون هو أول عالم يقرر في صراحة ووضوح نشأة هذا العلم الجديد واستكماله المقومات الضرورية والخواص المنطقية التي يجب توافرها في إلى علم من حيث الموضوع، ومصوغات العلم، وأدرك ميادينه، والمنهج، والغاية التي يقصد اليها. فاكتشافه على حد قولة لعلم العمران البشرى أو الاجتماع الانسانى بلغته وعلم الاجتماع بلغتنا التسميه التي وضعها ابن خلدون قد تكون أدق لأنها تشمل العمران والبشر اى المجتمع والإنسان .

- تعليق واستفادة:

يذهب الكثير من الباحثين إلى القول بان علم العمران الخلدوني ينطبق تماما على الدراسات الاجتماعية الحديثة ، وبالتالي يستحق ابن خلدون لقب منشأ علم الاجتماع أكثر من أوجست كونت، فالكلمتان اللتان اشتق منهما كونت التسمية تعنيان دراسة الجماعة، كما أن كلمه علم الاجتماع لغوياً لا تدل على المفهوم، فالاجتماع قد يكون (جماعاً جنسياً بين رجل وامرأة، وقد يكون اجتماعاً سياسيا ًبين رئيس وموظفيه،أو قد يدل على مجموعة من الأفراد بدون علاقة وثيقة بالمكان أو وحدة المشاعر بينهم، أما التسمية بعلم العمران البشرى، كما وافانا بها ابن خلدون قد تكون أدق بأنها تشمل العمران والبشر أي المجتمع والإنسان، بمعنى آخر مجتمعاً قام بتعمير مكان على كل المستويات السياسية والاقتصادية والعقلية والانسانيه، وما ينبع إقامة ذلك العمران في المجتمعات الانسانيه(جلبى:2001،ص93)، ومن هذه الوجهة ينطبق علم العمران على علم الاجتماع وإذا كان الغرب يزعم أن كونت ما أتاه فهو جديدا وهو دراسة الظواهر الاجتماعية على الطريقة الوضعية، فقد سبقه ابن خلدون إلى هذا بحوالي ما يزيد على أربعة قرون، بل إن فكرة نشأة المجتمع ونضجه واضمحلاله قد وردت قبلا لدى ابن خلدون، وقبل أن يأتى بها كونت بل يتميز ابن خلدون بأنه أدرك مسألة الضرورة الاجتماعيه والصراع والتغير كأبعاد أساسية في حياة المجتمع والإنسان(الشامى:2011،ص44+10).

ثانيا/ المفاهيم الخلدونية:

المطلب الاول/ مفهوم(التضامن) العصبية عند ابن خلدون:

يعتبر مفهوم العصبية: هو محور نظرية ابن خلدون في قيام الدول وسقوطها(حامد:1998،ص50)، والعصبية التي اهتم بها ليست العصبية الجاهلية العمياء، التي تكون على الباطل وأحواله، كما كانت في الجاهلية. (الساعاتى:58،1972).

ومفهوم العصبية أو العصبة التي يقصدها ابن خلدون لا تعني مطلق الجماعة وإنما الأفراد الذين تجمع بينهم رابطة الدم- النسب- أو رابطة الحلف أو الولاء بالإضافة إلى شرط الملازمة بينهم من أجل أن يتم التفاعل الاجتماعي، وتبقى مستمرة ومتفرعة بوجود هؤلاء الأفراد واستمرار تناسلهم ، فينشأ بين أفرادها شعور يؤدي إلى المحاماة والمدافعة وهم يتعصبون لبعضهم حينما يكون هناك داع للتعصب ، ويشعر الفرد بأنه جزء لا يتجزأ من أهل عصبته ، وفي هذه الحالة يفقد شخصيته الفردية بحيث تذوب في شخصية الجماعة ، وهو شعور جماعي مشترك لدى أفراد العصبة فهو ذو صبغة جمعية أساسية بين الفرد والمجموعة ، وليس بين فرد وآخر فقط ، وفي حال تعرض العصبة إلى عدوان فيظهر في هذه الحالة "الوعي" بالعصبية ، وهذا " **الوعي**

العصبي " هو الذي يشد أفراد العصبة إلى بعضهم وهو ما يسميه ابن خلدون " بالعصبية " التي بهـا تكـون الحمايـه والمدافعـة والمطالبـة وكـل أمـر يجتمـع عليـه
وبذلك يكون ابن خلدون وضع للعصبية مفهوما سسيولوجياً أنثربولوجياً هاماً ، فمن الناحية النظرية عبارة عن جماعة أبوية كما يشير إلى ذلك المفهوم اللغوى لها ، فاستخدمها بشكل أوسع (حامد:1998،ص50)، ارتبطت معالجته لها من خلال الواقع المعاش فاستخدم مفهوم "العصبة" في معناه الاجتماعي، كما انه استخدم المفهوم نفسه للإشارة إلى كل الجماعات الأكبر حجما منها التي تتألف من عدد من العصبات بغض النظر عن حجمها أو عمقها أو موضعها النسبي فيما يمكن أن نسميه "نسق العصبة". التي تعرف "بالحي" أو "البطن", وهى جماعة إقليمية وان كانت من الناحية النظري جماعة أبوية. واعتبرها الجماعة التي تؤدى وظائف رئيسية وجوهرية في المجتمع البدوي سواء كان بدويا من النوع الرحال أم شبة الرحال ، أم الريفي إذن العصبة هي وحدة اجتماعية سواء كانت قائمة بذاتها"كالعشيرة أو المجتمع المحلى" أو كانت من أقسام جماعة أكبر منها في المجتمع البدوي. ينطبق عليها مفهوم"البدنة".

فالعصبة عنده لا تقتصر على النسب الابوى, ويقول في ذلك والمعنى الذي كان به الالتحام إنما هو بالعشرة والمدافعة . واذ دا حصل الالتحام بذلك جاءت النعرة
والتناصر (حامد:1998،ص36 كذلك تشمل العصبية فئتين من الأعضاء الأولى: وهم العاصبون الذين يجمعهم الانتماء الواحد المشترك إلى سلف واحد هو مؤسس العصبة وفئة ثانية من الأعضاء المنتسبين لها من حلفاء والموالى والأتباع والنسب ويقول ابن خلدون :

"اعلم أنه من البين أن بعض من أهل الأنساب يسقط إلى أهل نسب أخر بقرابة إليهم أو حلف أو ولاء أو الفرار من قومه بجناية أصابها"(المقدمة:ص597)فالعصبة إذن ليست مجرد جماعة قرابية إقليمية أو اقتصادية، وإنما هي جماعة سياسية. تلتحم وتتوحد لأسباب سياسية فقيام الملك أو من اجل حماية العصبات ضد عدوان أو من اجل الغزو على عصبات أخرى فيقول ابن خلدون:

"ثم ان القبيل الواحد وان كانت في بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة، فلا بد من عصبية تكون أقوى من جميعها تغلبها وتستتبعها وتلتحم جميع العصبيات فيها، وتصير كأنها عصبية واحدة كبرى.
ولقد وضعت مفهومات حديثة متعددة ومختلفة لمفهوم العصبية مثال ذلك التضامن الاجتماعي، والشعور الجماعي، والوطنية، والشعور بالتضامن، ونمط معين من التنظيم السياسي، ومع ذلك

فان كل هذه المعاني والمفهومات تعبر عن جانب واحد من جوانب المفهوم الذي يعنيه ابن خلدون الأمر الذي أغدي ببعض الكتاب وخاصة الأجانب منهم أن يستخدم المفهوم العربي كما هو (حامد:1998،ص60+73).

2- شبكة العلاقات القرابية (العصبة) فى المفهوم الخلدونى:

يطنب ابن خلدون في شرح مفهومه للعصبه، مبينا أن العصبية نزعة طبيعية في البشر وأنها تتولد من النسب و القرابة، وتتوقف درجة قوتها أو ضعفها على درجة قرب النسب أو بعده. ثم يتجاوز مفهوم نطاق القرابة الضيقة المتمثلة في العائلة ويبين أن درجة النسب قد تكون في الولاء للقبيلة وهي العصبية القبلية ...يقول: ومن هذا الباب الولاء والحلف إذ نصرة كل أحد من أحد على أهل ولائه وحلفه التي تلحق النفس في اهتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب، و ذلك لأجل اللحمة الحاصلة من الولاء.

يؤكد ابن خلدون أن العصبة الصغيرة أكثر تماسكا وقوة من العصبة الأكبر فالعلاقات القرابية في المجتمع البدوي تتميز بخاصية الانقسام والالتحام نتيجة عوامل ايكولوجية واقتصادية وسياسية واجتماعية كما أن خط القرابة العمودي أو المجانبة له أهمية في القرابة والعلاقات .

2- مفهوم النسب لابن خلدون :

قسم ابن خلدون النسب الى قسمين مكملين للمفهوم هما:

أ- النسب الصريح:

وهو النسب الواضح والظاهر، الذي يعرف بالنسب الأبوي أو القرابة التي يترابط الأقارب بمقتضاها بعضهم ببعض عن طريق الانتماء إلى سلف واحد مشترك، ويردون نسبهم إلية في خط الذكور، فهو يشير إلى السلف الذي تنتسب إليه جماعه معينه عضويتها المشتركة، وبالتالي يقف هذا السلف على رأس سائر الأجداد.

ب/ نسب الولاء :

ويعنى الانتماء إلى النسب الصريح عن طريق الولاء أو الحلف؛ فيمنح أعضاء النسب الصريح العضوية،- عضوية النسب-، لشخص أو جماعة بمقتضى قواعد الحلف أو الولاء.
وعلى ذلك لم ينظر ابن خلدون إلى النسب على أساس ناحيته البيولوجية فحسب . (حامد:1998، 65).

3- مفهوم الالتحام والانقسام لابن خلدون:

هي إحدى النقاط الهامة التي ركز ابن خلدون عليها اهتمامه، وهى عملية التحام العصبات وتكتلها وتنظيمها وتوجيهها لغرض تحقيق القوة السياسية يقول ابن خلدون :

"فالعصبة إنما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه". ولتوضيح المعنى يأخذ مثل من التاريخ ويقول:

"وانظر خلاف الناس في نسب أل المنذر وغيرهم يتبين لك شيء من ذلك. ومنه شأن بجيلية في عرفجة ابن هرثمة لما ولاه عمر عليهم فسألوه الإعفاء منه، وقالوا هو فينا لزيق".(حامد:1998، ص97), ويقول أيضا:

"أن العصبية إنما تكون من الالتحام بالنسب". ويكشف لنا مفهوم النسب وارتباطه بالعصبية هي ثمرة العلاقات الاجتماعية .

4- مفهوم ابن خلدون للملك والدولة:

بعد أن تعرض ابن خلدون لمفهوم العصبية و أسبا وجودها أو فقدانها، انتقل إلى موضوع حساس وهام ، مبينا دور العصبية فيه، ألا وهو موضوع الرئاسة ، وهو يقصد بذلك حق التوجيه القيادى (غريب:1986،ص153).ثم يتحدث عن كيفية الوصول إلى الرياسة. فأثناء مرحلة العمران البدوي يوجد صراع بين مختلف العصبيات على الرئاسة ضمن القبيلة الواحدة، أي ضمن العصبية العامة حيث: ..إن كل حي أو بطن من القبائل، و إن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ، ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم مثل عشيرة واحد أو أهل بيت واحد أو أخوة بني أب واحد، لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين ، فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ، و يشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام، والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص و من أهل النسب العام، ألا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة. ومن هنا ينجم التنافس بين مختلف العصبيات الخاصة على الرئاسة ، تفوز فيه بطبيعة الحال العصبة الخاصة الأقوى التي تحافظ على الرئاسة إلى أن تغلبها عصبة خاصة أخرى و هكذا،يقول ابن خلدون:

"و لما كانت الرئاسة إنما تكون بالغلب، وجب أن تكون عصبة ذلك النصاب -أي أهل العصبية الخاصة- أقوى من سائر العصبيات ليقع الغلب بها و تتم الرئاسة لأهلها... فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصبة، ومنه تعين استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص.(عنان:1933،ص32)

كمـــا انـــه تحـــدث عـــن الاعمـــار الطبيعيـــة قاصـــداً بـــذلك فكـــرة الـــدورات التاريخية(غريب:1986،ص153)، فحدد مدة وراثة الرئاسة ضمن العصبية القوية بأربعة أجيال على العموم ، أي بحوالي 120 سنة في تقديره. فيقول:

"ذلك بأن باني المجد عالم بما عاناه في بنائه و محافظ على الخلال التي هي سبب كونه و بقائه ، و بعده ابن مباشر لأبيه قد سمع منه ذلك وأخذ عنه، ألا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشئ عن المعاين له ثم إذا جاء الثالث كان حظه في الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة و أضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم و احتقرها و توهم أن أمر ذلك البنيان لم يكن بمعاناة و لاتكلف، وإنما هو أمر واجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم و ليس بعصبية... و اعتبار الأربعة من الأجيال الأربعة بان و مباشر و مقلد و هادم". و بذلك ينهي ابن خلدون نظريته المتعلقة بالسلطة أثناء مرحلة العمران البدوي، ويخلص إلى نتيجة أن السلطة في مبنية أساسا على العصبية بحيث لا يمكن أن تكون لها قائمة بدونها.(عنان:1933،ص33).

5- العصبية والسلطة في العمران الحضري لابن خلدون :

انطلاقا من نظريته السابقة المتعلقة بدور العصبية في الوصول إلى الرئاسة في المجتمع البدوي ، واصل ابن خلدون تحليله على نفس النسق فيما يتعلق بالسلطة في المجتمع الحضري مبينا أن العصبية الخاصة بعد استيلائها على الرئاسة تطمح إلى ما هو أكثر، أي إلى فرض سيادتها على قبائل أخرى بالقوة ، وعن طريق الحروب والتغلب للوصول إلى مرحلة الملك فيقول: " وهذا التغلب هو الملك ، وهو أمر زائد على الرئاسة... فهو التغلب والحكم بالقهر ، وصاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها". معتمدا في تحقيق ذلك أساسا و بالدرجة الأولى على العصبية حيث إن الغاية التي تجري إليها العصبية هي الملك . فهذه إذن المرحلة الأولى في تأسيس الملك أو الدولة، وهي مرحلة لا تتم إلا من خلال العصبية.(عنان:1933,ص56).

بالوصول إلى تلك المرحلة يبدأ العمران الحضري شيئا فشيئا وتصبح السلطة الجديدة تفكر في تدعيم وضعها آخذة بعين الاعتبار جميع العصبيات التابعة لها، وبذلك فإنها لم تعد تعتمد على عامل النسب بل على عوامل اجتماعية وأخلاقية جديدة ، يسميها ابن خلدون (الخلال). هنا تدخل الدولة في صراع مع عصبيتها ، لأن وجودها أصبح يتنافى عمليا مع وجود تلك العصبية التي كانت في بداية الأمر سببا في قيامها. ومع نشوء يتخطى الملك عصبيته الخاصة، و يعتمد على مختلف العصبيات. و بذلك تتوسع قاعدة الملك ويصبح الحاكم أغنى وأقوى من ذي قبل، بفضل توسع قاعدة الضرائب من ناحية، والأموال التي التي تدرها الصناعات الحرفية التي تنتعش وتزدهر في مرحلة العمران الحضري من ناحية أخرى.

لتدعيم ملكه يلجأ إلى تعويض القوة العسكرية التي كانت تقدمها له العصبية الخاصة أو العامة(القبيلة) بإنشاء جيش من خارج عصبيته، وحتى من عناصر أجنبية عن قومه. وهكذا تبلغ الدولة الجديدة قمة مجدها في تلك المرحلة، ثم تأخذ في الانحدار حيث أن المال يبدأ في النفاذ شيئا فشيئا بسبب كثرة الإنفاق على ملذات الحياة والترف والدعة. وعلى الجيوش ومختلف الموظفين الذين يعتمد عليهم الحكم. وبذلك يكون الحكم قد دخل مرحلة بداية النهاية ، أي مرحلة الهرم التي ستنتهي حتما بزواله وقيام ملك جديد يمر بنفس الأطوار السابقة (ببلى:1999،ص132) هكذا مفهوم ابن خلدون عن أسباب فناء الدول: إذ يقول:

" ألامه إذ ؤاغليت وصارت في ملك غيرها أسرع إليها الفناء، والسبب في ذلك ما يحصل في النفوس من التكاسل إذا ملك أمرها عليها وصارت بالاستبعاد اله لسواها، وعالة عليهم فيقصر الأمل ويضعف النفوس فإذا ذهب الأمل بالتكاسل، وذهب ما يدعو إليه من الأحوال، وكانت العصبية ذاهبة بالغلب الحاصل عليهم، تناقص عمرانهم، وتلاشت مكاسبهم ومساعيهم، وعجزوا عن المدافعة عن أنفسهم، بما خضد الغلب من شوكتهم فأصبحوا مُغلّبين لكل متغلب، وطعمه لكل آكل، سواء كانوا حصلوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا".

واستخدمه أيضا عند حديثة عن مواصفات الرئيس "أن يعد الرجل في ابائة أشرافا مذكورين, تكون لهم بولادتهم إياه والانتساب إليهم تجله في أهل جلدته، لما وقر في نفوسهم من تجله سلفه وشرفهم بخلالهم"(حامد:1998،ص88).

المطلب الثاني / العمليات الاجتماعية عند ابن خلدون:

في إطار المفهومات والقضايا التي استقر فيها علم الاجتماع حديثاً ومراجعة ما كتبة ابن خلدون في أكثر من موقع من المقدمة نستطيع أن نلمس إلى اى حد كانت أفكار ابن خلدون مطابقة لهذا الفهم من العمليات الاجتماعية مثل التعاون والصراع والتغير والحراك.

1- التعاون والتكامل الاجتماعي:

يعتقد ابن خلدون بأن الاجتماع الانسانى بأمر طبيعي وضروري، فالإنسان مدني بطبعه، بمعنى أنه لا يستطيع أن يعيش إلا في مجتمع ولا يملك كمال ذاته إلا في شعور فطرى يدفعه إلى محاولة الاستئناس بأخيه الإنسان. فضرورة الحياة الاجتماعية تنعكس في حاجة الأفراد إلى التعاون لسد الحاجات الاقتصادية والدفاعية ، فالفرد لا يستطيع توفير ذلك(الشامى:2003،ص161).وذلك لان قدرة الواحد من البشر قاصرة على تحصيل حاجته من الغذاء، فلا بد من اجتماع القدر الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم، كما أن اى واحد من البشر لا تقاوم قدره الواحد من الحيوانات العجم المفترسة، فهو عاجز عن مدافعتها بالجملة. (جبلى:2001/ص92).

2- الصراع:

تناول ابن خلدون مبدأ عدوان البشر على بعضهم البعض، فهو يؤكد على ضرورة وجود وازع يدفع هذا العدوان بمعنى انه عندما تناول عملية الصراع الاجتماعي بين البشر، كان يمهد للحديث عن ضرورة وجود نظام سياسي ؛ يقول ابن خلدون: فمن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعضهم ببعض فمن امتدت عينه إلى متاع اخية امتدت يده الى أخذة إلى أن يصده وازع(جبلى: 2001،ص96).

3- التغير الاجتماعي:

يعتبر ابن خلدون من أشهر علماء الاجتماع التاريخيين الذين يؤمنون بحتمية تغير المجتمع من نمط إلى آخر، فالمجتمع بالنسبة له كالكائن الحيواني يولد وينمو ويتكامل ويضعف ويموت. وهو في حركته التحولية هذه يمر في ثلاث مراحل أساسية هي مرحلة البداوة والمرحلة الريفية وأخيرا المرحلة الحضرية.(الشامى:2003،ص14)،فذكر التغير باكثر من موقع ،فيقول:
"أحوال متقلبة مشاعة" وفى موضع آخر في المقدمة "تبدل الأحوال والعوائد" وتغيير الأحوال وانقلابها"؛ فابن خلدون يعزو التغير أساسا للتغير في القاعدة الاقتصادية للمجتمع، ثم إلى عوامل خارجية وأخرى داخلية(جامعة القدس: 1996،ص16).

يرى ابن خلدون أن العصبية هي المحرك للتاريخ الاجتماعي للمجتمعات ، وهي وراء عملية التغير الاجتماعي بشكل عام ، منطلقا في تفكيره من مبدأ العلاقات الجدلية بين العمران البدوي والعمران الحضري ، مفسرا نشأة الدول وانحلالها بناء على آلية العصبية ، فهي التي تؤدي إلى الملك ، وهي نفسها التي تؤدي إلى زواله .

4- التطور :

يقوم هذا المفهوم على افتراض أن المجتمع الانسانى كبعض الظواهر الطبيعية، وخاصة البيولوجية يسير في اتجاه تحكمه في الغالب نواميس الطبيعة وغاياتها(جامعة القدس:1996،ص11) فهذا المفهوم واضحا عند ابن خلدون عندما استخلص أن المدينة هي الهدف النهائي للاستقرار البشري، إذ كلما تحسنت أوضاع أهل البادية أو الريف اتجهوا للإقامة في المدن ثم استخلص أيضا أن الطريق من البادية إلى المدينة طريق لا رجعة فيه.(ببلى:1999،ص135)، فابن خلدون يؤمن بمبدأ التطور في جميع أوجه الحياة حتى في أصل الأنواع وعلاقاتها، وفكرة التطور تظهر بارزة في بحثه للحياة الاجتماعية والتاريخية، بقولة:
" وذلك أن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحده ومنهاج مستقر، إنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة، وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الأقطار والأزمنة والدول..."فمسالة التغير في مفهوم ابن خلدون مسالة

تدريجية مستمرة، تشمل ميادين الحياة والعمران بأكملها، كما تتضمن المستوى الشخصي والجماعي والتنظيمات والدولة (جامعة القدس:1996،ص16).

فالتطور عند ابن خلدون أن البادية أصل العمران والأمصار مداد لها .

فيدلل ابن خلدون على مفهومة هذا "بأن البدو أصل للمجتمعات كلها وهم تبعاً لذلك أقدم من الحضر" أن الإنسان يبدأ أولا بالسعي للحصول على ما يسد رمقه، ويكفل له استمرارية حياته، وهذه هي بداية كل التجمعات البشرية، ومنها تأتي كلمة "بادية"، والتي قد تعني من بين معانيها الكثيرة البداية، وبما أن الحضر منشغلون بالترفي والكمالي في أحوالهم، فيستحيل أن يكونوا بحال من الأحوال سابقين على البدو من حيث النشأة، لأن الانشغال بالضروري أقدم وسابق على الانشغال بالكمالي، وبما أن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه فالبداوة أصل للحضارة وسابق عليه، وخشونة البداوة قبل رقة الحضارة، والمدنية غاية للبدوي يجري إليها، ومتى ما حصل على الدعة فيها وصل إلى قيادة المدينة، وهذا شأن القبائل البدوية كلها، أما الحضري فلا يعود للبادية إلا لضرورة تدعوه إليها.(ببلى:1999،ص138).

5- التبعية:

يقول ابن خلدون:"أن المغلوب مولع بالغالب أبداً بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"(المقدمة:ص147).

المطلب الثالث/ تصنيف المجتمعات لابن خلدون:

صنف ابن خلدون المجتمعات إلى نمطين وفق معيار أسلوب الحياة فيقول في مقدمته: "اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف محلتهم من المعاش فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة. وهؤلاء سكان المدن والقرى والجبال. ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والماعز" (حامد:1998,ص99)، إن هذا التقسيم للمجتمعات اعتمدوه كثير من علماء الغرب الذين أتوا بعد ابن خلدون مثل ثنائية اميل دوركايم الشهيرة التي تقابل بين نوعين من المجتمعات وفقا لشكل التضامن الاجتماعي وهما (التضامن الميكانيكي،التضامن العضوي)،(الشامى:2002،ص23)، وثنائية "هربرت اسبنسر" وهما(المجتمع العسكري، والمجتمع الصناعي).

1- مقياسه لتحديد البداوة والحضارة.

في حين صنف العلماء الزراعة مهنه للريفيين أو القرويين، كان قد ألحقها ابن خلدون بالبدويين، ولم يكن عند ابن خلدون مجتمع وسط بين المجتمعين البدوي والحضري، وكان المحك

الرئيس عند ابن خلدون للبداوة هو الرحال، فمتى حل الاستقرار الدائم انتهى عصر البداوة.(الشامة:2003،ص23).

وقد اختلفت آراء العلماء في تحديد مقياس للحياة البدوية والريفية والحضرية مابين تصنيف حسب المهنة أو حسب حجم المجتمع أو تجانس السكان أو عدم تجانسهم نفسيا واجتماعيا وثقافيا أو درجة الحراك الاجتماعي واتجاهه أو أشكال التباين الاجتماعي أو أنساق التفاعل الاجتماعي، ومع التقدم الذي تشهده المجتمعات باختلاف مشاربها أرى أن مقياس ابن خلدون وهو الترحال يبقى الأقوى للتصنيف، فالمقاييس الأخرى مرنة جدا وقد تتداخل فيها المجتمعات البدوية بالريفية بالحضرية بسهولة، والثغرات بها كبيرة وهذا ما نتج عنه سهولة إطلاق صفة بدو وبداوة.(ببلى:1999،ص139).

2- مفهوم ابن خلدون عن البدو:

يقول ابن خلدون: "إن أهل البدو المنتحلون للمعاش الطبيعي ... و إنهم مقتصرون على الضروري الأقوات والملابس والمساكن وسائر الأحوال والعوائد. (المقدمة+عنان:1933،ص40)، ومفهومة عنها: هي المجتمعات البسيطة غير معقدة النسيج لقلة عدد أفراد كل منها وقلة مطالبهم، تذوب هوية الفرد في إطار الجماعة، وشدة الضبط الاجتماعي لديهم، ومتانة العلاقات الاجتماعية بينهم لقيامها أساسا على قاعدة متينة من العصبية وهى روح الجماعة.

ومن خلال مفهومة للبدو قسمهم ابن خلدون إلى عدة أقسام حسب أعمالهم وما يتوفر بأيديهم فمنهم من يعمل بالفلاحة من غراسه وزراعة وهم سكان القرى والجبال واستقرارهم أكثر من ترحالهم (وهم عامة البربر والأعاجم). ومنهم من يعمل برعي المواشي من غنم ومعز وبقر وهم رحالة غالبا خلف الماء والكلأ فالترحال أصلح لحالهم من الاستقرار ويطلق عليهم (الشاوية) حسب لفظ ابن خلدون لكنهم رغم ترحالهم لا يبتعدون كثيرا ويتوغلون في الصحاري لعدم وجود المراعي داخل القفار(مثل التركمان والترك والأكراد والصقالبة). (الساعاتى:1972،ص73).

ومنهم من يعمل برعي الإبل وهم أكثر ترحالا وتوغلا في الصحاري والقفار لأن الإبل لا تستغني عن أشجار الصحاري ونباتها إلا أنهم يتقلبون في الشتاء من وسط الصحاري إلى أطرافها فِرارا من أذى البرد ولذلك هم أشد الناس توحشا وهم بالنسبة للحضر بمقام الوحش غير المقدور عليه(هؤلاء هم العرب ومثلهم رحالة البربر والأكراد والتركمان والترك بالمشرق)، إلا أن العرب أشد بداوة لأنهم مختصون بالإبل فقط أما البقية من بربر وأكراد وتركمان وترك فهؤلاء يرعون الماشية من بقر وشياه. وهؤلاء من زُرّاع ورعاة تجبرهم طبيعة أعمالهم أن يكونوا بالبادية لاتساعها للزراعة والرعي وهو مالا تتسع له الحاضرة، وبهذا يكون اجتماعهم للتعاون فيما بينهم

لتلبية الضروريات لما يحفظ حياتهم ويكفل لها الاستمرارية دون أن يحصل لهم زيادة فوق الضروريات للعجز عن ذلك. (ببلي:1999،ص143).

3- مفهوم ابن خلدون للتوحش:

إن مقياس توحش البدوي أو تحضره يرتبط لدى ابن خلدون بمدى قربه أو بعده عن المدينة فكلما ابتعد البدوي عن المدينة ازداد توحشاً ويطلق على أهلها "المتوحشين " أو الأمم المتوحشة"...ويقول:

أن "الصريح من النسب إنما يوجد للمتوحشين في القفر ... و ذلك لما اختصوا به من نكد العيش و شظف الأحوال و سوء الموطن، حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة"؛(عنان:1933،ص32)، ويستخدم ابن خلدون مفهوم "خشونة البداوة" في الإشارة إلى طبيعة ظروف المعيشة والعزلة والتوغل في الصحراء أما "طبيعة التوحش" "وعوائد التوحش" فهي الصفات من الشجاعة والكرم والعفة والصراحة والشهامة والوفاء والنجدة إلى جانب النهب والقتل والغزو وكذلك احتقار العلم والصنائع والمهن . ولذلك فإن الأصناف الثلاثة من البدو التي ذكرها ابن خلدون إنما ذكرها مرتبة من الأقل بداوة (المشتغلين بالزراعة) إلى الأكثر بداوة (مربي الإبل). وتفسير ذلك أنّ "القفر مكان الشظف والسغب فصار لهم إلفا وعادة"(المقدمة:ص859)، هذا الترتيب يعتمد المدينة مقياسا، والمدينة تعنى في هذا المجال المقام والاستقرار مع ما ينجر عن ذلك من مظاهر دينية وسياسية وثقافية واقتصادية (المقدمة : ص193).

4- مفهوم ابن خلدون للعمران الحضري:

يتميز الحضر بالاستقرار الجغرافي يقطن أفراده داخل المدن ويعتمد على الصناعة والتجارة والزراعة الكثيفة وينتهج نظام دقيق في تقسيم العمل والتخصص فيه فيقول:

"إن تفاضل الأمصار والمدن في كثرة الترف لأهلها ونفاق الأسواق إنما هو تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة وهذه الأنماط الحضرية المجتمعة هي: المدن الصغيرة، والمدن المتوسطة, ثم المدن الكبيرة.

أما " رقة الحضارة" ويعنى بها مجموعة سمات للشخصية وأنماط للسلوك الاجتماعي الناجمة عن حياة هذا العمران .

فالحضارة عنده هي غاية التفنن في المأكل والمشرب وإحكام المباني والفرش، والترف بشكل عام، فهي أسلوب حياة أهل الحضر المترفين، وهذا لا يكون إلا في دولة، فالحضارة عندئذ مفسدة للعمران، مؤدية بالدولة إلى الضعف والزوال.

المطلب الرابع/ مفهوم ابن خلدون للنظم الاجتماعية:

قال ابن خلدون "للعمران طبائع في أحواله" وهى ما يكون للمجتمع من خصائص ونظم في طبيعته تميزه عن باقي المجتمعات في ألوان السلوك الاجتماعي وقولة "وما يعرض في العمران من دوله وملة، ومدينه وحله، وعزه ودوله، وكثرة وقله، وعلم وصناعه وكسب " نجد أن ابن خلدون ينظر إلى الواقع الاجتماعي من خلال النظم الاجتماعية المختلفة من نظام سياسي ونظام اقتصادي ونظام ديني التي تميز النظام البدوي من النظام الحضري (المقدمة:ص4).

1- مفهومه للتنظيم السياسي:

يقرر ابن خلدون أن أينما وجد تجمع انسانى فهم بحاجة إلى تنظيم سياسي يرعى شئونهم ويحقق مصالحهم ويحافظ على كيان الجماعة ويكون ذلك من مشايخ والمشيخة فى النظام القبلي مرهونة بعدد سمات وخصائص يجب أن تتوافر لدى الرئيس كالحنكة والشجاعة والحكمة والاتزان.....الخ ويطلق عليها ابن خلدون البيت والشرف والحسب فيقول: ابن خلدون في ذلك.

"وأما أحياء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبراؤهم بما وقر في نفوس الكافة لهم من الوقار والتجلة. وأما حللهم فإنما يذود عنها من خارج حامية الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعة فيهم" (حامد:1998،ص88).

2- مفهوم الرقابة الاجتماعية عند ابن خلدون :

تعرف االانثروبولوجيا وعلم الاجتماع، الضبط الاجتماعي، وهى "الرقابة الاجتماعية" كما يطلق عليها ابن خلدون، هي كافة الجهود والإجراءات التي يتخذها المجتمع أو جزء من هذا المجتمع لحمل الأفراد على السير على المستوى المألوف المصطلح علية من الجماعة . وقد فطن ابن خلدون في مقدمته لأهمية الضبط الاجتماعي، -القانون- وانه أساس الحياة الاجتماعية وضمانا لأمنها واستمرارا لبقائها.في حياة المجتمعات(حامد:1998،84)، ويجب أن يكون بيد السلطان لان تنفيذه يحتاج إلى قوة ، فيقول ابن خلدون:

"فلا بد من وازع يدفع البشر بعضهم عن بعض..فيكون الوازع واحد منهم يكون له الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غيرة بعدوان" (حامد:1998،ص107).

4- اثر البيئة في الشخصية(النظام البيئي).

أدرك ابن خلدون سر تباين المجتمعات وتشابهها وارجع هذه العوامل إلى اثر البيئة والعوامل الجغرافية وأحوال المعيشة في أخلاقية الشعوب وطبائعهم وأحوالهم ؛ (حلس:1997،ص93)،

فالقدرات الذهنية العالية التي يتمتع بها الحضريون من ذكاء ونفاذ بصيرة وتفوقهم عن أهل البداوة, لا ترجع إلى أسباب سلالية وإنما ترجع إلى أسلوب الحياة والمعيشة والأعمال فهو يقول:
"ما يحصل في النفوس من أثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم في الصنائع".

كما تناول أثر العامل الجغرافي على المظهر العمراني ، ففسر كثره العمران وازدياد السكان بالظروف المناخية، وتأثير المعتدل من الأقاليم والمنحرف منها في ألوان البشر؛ ويقرر أن الأقاليم المعتدلة يكون سكانها أعدل أجسامهما وأخلاقا واديانا ، (غريب:161،1986)، ويمكن أن نمثل ذلك بما كتبة عن " أثر الهواء في أخلاق البشر" وهو عنوان في الفصل الرابع من الباب الأول من مقدمته، حيث يرجع خفة السودان وطيشهم وكثرة طربهم وولعهم بالرقص إلى شدة حرارة بلادهم بالإضافة إلى حرارة أرواحهم الراجعة إلى أصل تكوينهم. ويدخل مصر في هذا الإقليم، فيقول في أهلها:

" كيف غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب، حتى إنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم، وعامه مأكلهم من أسواقهم". أما فاس بلاد المغرب بالعكس من مصر لان بلادهم باردة فأهلها مطرقين في الحزن، وأهلها يدخرون قوت سنتين .(لطفى:1977،ص102).

واضح مما سبق أنه لا يقول كلاما عارضا وإنما هو يعنى مفاهيم قد تصلح إلى نظريات ثابتة ،وهذا ما تفطن إلية (دوركايم) وأطلق عليها مفهوم المورفولوجيا الاجتماعية. وظن دوركايم ومدرسته أنهم أول من عنى بدراستها وادخلها في مسائل علم الاجتماع ولم يدروا أن ابن خلدون قد سبقهم إلى ذلك بأكثر من خمسه قرون(غريب:1986،ص138).

5- مفهوم ابن خلدون للتنشئة الاجتماعية:

وهى إكساب الفرد صفات يتميز بها عن غيرة من الأفراد فيقول" أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه، لا طبيعته ومزاجه"(31)، إن ابن خلدون قد قرر في مفهومه هذا للتنشئة أن البيئة تفعل بالإنسان ما لا تفعله الوراثة وقد فسر بمفهومه هذا السبب في أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر، الذين القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف
وهو الاجتماع الانسانى والعمران البشرى.(الساعاتى:1972،ص17).

المبحث الثالث/ منهجية ابن خلدون:

في هذا المبحث سنعرض طبيعة المنهج الخلدوني الذي تناول من خلاله ظواهر العمران البشرى ، وهو منهج يقوم على استخلاص قوانين المجتمع من جذوره التاريخية ويفسرها تاريخياً، وهو منهج ربما يغيب على كثير من الباحثين في عصرنا الذين يركزون على البحث الميداني لدراسة الظواهر الاجتماعية بطريق الاستبيان، وذلك دون غوص عميق يتعرض للجذور

التاريخية، والثقافية، التي لا يمكن إنكار تأثيرها وهذه ميزة في إسهام ابن خلدوني في دراسته للمقدمة.

منهج البحث عند ابن خلدون :

كانت غاية ابن خلدون الاجتماعية هي أن يشرح ظواهر العمران بمختلف أنواعها وخاصة ما يتعلق منها بناحية التطور الاجتماعي. فرأى أنه من الضروري أن يبدأ بدراسة القوانين التي يحدث التطور لها لأنه لا يقبل التسليم بأن الحوادث والظواهر تتعاقب مصادفة دون انتظام، بل يقرر أن هناك قوانين تيسر الحركة الاجتماعية، أنه يجب للوصول إلى هذه القوانين أن ندرس المجتمع البشرى في ذاته. أي أن وظيفة علم الاجتماع هي الكشف عن القوانين التي تسير وفقا لهذه الظواهر العمرانية في نشأتها وتطورها والوظائف التي تؤديها.

وللوصول إلى هذه الغايات النظرية، اتبع ابن خلدون فى مقدمته مفاهيم منهجيه دقيقة مغايرة لمناهج سابقية. يجعل الدراسة أو البحث ذا قيمة عالية لا جدال فيها فهو يرى أن على الباحث أن لا يقبل شيئا على أنه حق إلا أن يتأكد بوضوح (حلس:70،1997). لقد أرسى ابن خلدون الأسس المنهجية لدراسة المجتمعات البشرية، فكان بذلك، أسبق من علماء الاجتماع في أوروبا. وعلماء الأنثروبولوجيا البريطانيون،. يذكر " مارفين هاريس ، أنّ ابن خلدون ومن قبله الإدريسي، قدّما أفكاراً ومواد ساعدت في بلورة نظرية الحتمية الجغرافية، التي سادت إبآن القرن الثامن عشر .

يقوم إبداع ابن خلدون في تطبيق دراسة للمجتمعات منهج الترصد والمشاهدة (غريب: 1986،ص127)، ولذلك يجب الاعتماد على الملاحظة المباشرة التي تتم بطريقة علمية ونقدية (الشامى:2003،ص15)، وكان متبعاً لعديد من القواعد المنهجية مثل التأمل والاستقراء والتحقيق العلمي والتحقيق الحسي والمقارنة والتجربة، والنظر في الحوادث في إطارها الزمني، كما كان مؤمناً بمبدأ الترابط بين الظواهر الاجتماعية(غريب:1986،ص132).
استعمل ابن خلدون في دراسته الاجتماعية المنهج العلمي–الوضعي– واتبع عدة أساليب وطرق بحثية ويمكن تقسيم منهج ابن خلدون إلى قسمين:

القسم الأول:

وهو منهج وصفي تحليلي أو ايجابي، اتبع فيه الأسس المنهجية التي ترشد الباحث إلى الوصول إلى القوانين التي تخضع لها الظواهر الاجتماعية، " وهو عبارة عن القواعد المنطقية التي يسير بمقتضاها العقل في طريقه إلى كشف الحقائق "

."أما القواعد المنهجية التي تشكل القسم الأول فهي:

– يجب الاعتماد على الملاحظة المباشرة وما تؤدي إليه التجربة.

– يجب تفسير الظواهر وتحليلها واستخدام منطق التعليل.

–يجب الاعتماد على منطق المقارنة أو منهج البحث المقارن.

– يجب قياس الأخبار على أصول العادة وطبائع العمران فل يصح أن نأخذ أخبار الحوادث والأخبار كما تلقى علينا النظر بل يجب النظر إليها هل هي ممكنة الحدوث في حد ذاتها أو مستحيلة.

– يجب دراسة تطور الظواهر والنظم العمرانية"........

وأساس هذا القسم الايجابي الملاحظة والتجربة والاستقراء وسنعرضها بشيء من التفصيل.

القسم الثاني:

نقدي سلبي أي التعرض إلى أخطاء المؤرخين السابقين عليه متحليا بالتجرد فقد حصر فيه ابن خلدون أخطاء المؤرخين في الآتي:

– الاقتصار في الأخبار على مجرد النقل وعدم قياس الشاهد على والحاضر بالذاهب، لا بد ان يؤدى بنا الى الحياد عن جادة الصواب.

التشيع للآراء والمذاهب.

– الثقة بالناقلين وتصديق الباحث لما يرويه ثقاة المؤرخين.

– الذهول عن المقاصد ، فكثير من الباحثين يجهلون الغاية مما يسمعونه من الناس، ويذهبون في صدد الروايات مذاهب شتى من الظن والحدس والتخمين.

– تقرب العلماء والمؤرخين من أصحاب المراتب العليا والسلطات بالمدح والثناء.

– جهل المؤرخين بطبائع الأحوال في العمران، وهو خطا فاضح من وجهة نظر ابن خلدون. (71)

1- اسلوب الملاحظة:

هي أحد الأساليب التي يستخدمها الباحث المقيم، في دراسة الشعوب البدائية. ويقوم هذا الأسلوب على مراقبة و معاينة .

فابن خلدون في بحوثه استخدم اسلوب الملاحظة لظواهر الاجتماع في مختلف الشعوب التي أتيح له الاحتكاك بها والحياة بين أهلها، وعلى تعقب هذه الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور السابقة على عصره، وتعقب أشباهها ونظائرها في تاريخ شعوب أخرى لم تتاح له الفرصة لا الاحتكاك بها و الحياة بين أهلها. ثم الموازنة بين هذه الظواهر جميعها. والتأمل في

مختلف شؤونها للوقوف على طبائعها" وعناصرها الذاتية وصفاتها العرضية ،(عنان:1933،ص102) وما تؤديه من وظائف في حياة الإفراد والجماعات ، والعلاقات التي تربطها بعضها ببعض والعلاقات التي تربطها بما عداها من الظواهر. الكونية، وعوامل تطورها واختلافها باختلاف الأمم والعصور، ثم الانتهاء من هذا جميعا إلى استخلاص ما تخضع له هذه الظواهر في مختلف شئونها من قوانين".

وبذلك ففي بحثه للظواهر الاجتماعية يجتاز مرحلتين اثنين: تتمثل أولاهما في ملاحظات حسية وتاريخية لظواهر الاجتماع، أي تتمثل في جمع المواد الأولية لموضوع بحثه من المشاهدات ومن بطون التاريخ، وتتمثل المرحلة الثانية في عمليات عقلية يجريها على هذه المواد الأولية، وبفضلها يصل إلى الغرض الذي يقصده من هذا العلم، وهو الكشف عما يحكم الظواهر الاجتماعية من قوانين..وهذا هو جوهر المنهج الذي اتبعه، وهو المنهج الذي لا يزال حتى الوقت الحاضر عمدة الباحثين في علم الاجتماع والانثروبولوجيا(44)

2- أسلوب المقارن:

حيث أشار إلى ضرورة مقارنة الظاهرة بغيرها من الظواهر المرتبطة بها في المجتمع نفسه وفى غيرة من المجتمعات، ذلك أن الظواهر الاجتماعية كما يعتقد ابن خلدون لا تختلف باختلاف العصور فحسب ولكنها تختلف أيضا من مجتمع لآخر ومن بيئة لبيئة أخرى، لقد اكتشف ابن خلدون قانوني التشابه والتباين، فقانون التشابه يتأتى من حقيقة تشابه مجتمعات في بنائها ووظائفها وتحويلها من نمط إلى نمط آخر وفى وحدتها العقلية والتفكيرية، أما قانون التباين فيفسر اختلاف المجتمعات في ظروفها وأحوالها وعاداتها وتقاليدها ومستويات تقدمها ونضجها الحضاري والتاريخي (الشامى:2003،ص15).

3- الأسلوب التاريخي:

استخدم هذا الاسلوب ونبه إليه العلامة ابن خلدون عندما تعقب الظاهرة(حلس:1997،ص92). بدءاً بتحليل أصل وجود المجتمع وحتمية حركته وتطوره عبر الأجيال والعصور، ويؤكد ابن خلدون أن هناك قوانين تاريخية تحدد مسيرة المجتمع وصيرورته ومروره في مراحل تاريخية متباينة كل مرحلة تتميز بخصائص معينه، إن التحول الاجتماعي كما يراه ابن خلدون هو شيء حتمي يتسم بالاستمرارية والفاعلية، والمجتمع البشرى شأنه شأن الفرد يمر بمراحل منذ ولادته وحتى وفاته وان للدولة أعمار وهذه الأعمار تتحدد بثلاثة أجيال والجيل هو أربعون سنة، وفى هذه الاجيال الثلاثة يمر المجتمع بمرحلة النشأة والتكوين ومرحلة النضوج والاكتمال وأخيرا مرحلة الهرم والشيخوخة.(حامد:1998،ص97). كما نلاحظ في مقدمته انه انتقد المؤرخين بقولة:

"إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها وسطروها في صفحات الدفاتر وأودعوها وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها وابتدعوها وزخارف من الروايات المضعفة لفقوها ووضعوها واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وأدوها إلينا كما سمعوها ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترهات الأحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل والغلط والوهم نسيب للأخبار"(المقدمه:94) لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل و لم تحكم أصول العادة و قواعد السياسة و طبيعة العمران و الأحوال في الاجتماع الإنساني و "لا قيس الغائب منها بالشاهد و الحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور و مزلة القدم و الحيد عن جادة الصدق" و كثيراً ما وقع للمؤرخين و المفسرين و أئمة النقل من المغالط في الحكايات و الوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً و لم يعرضوها على أصولها و لا قاسوها بأشباهها و لا سبروها بمعيار الحكمة و الوقوف على طبائع الكائنات و تحكيم النظر و البصيرة في الأخبار"(المقدمة ص17)فمن ابداع نظرته الى التاريخ ،أنه يجب أن يبنى على تعليل الحوادث ومعرفة أسرارها ومطابقتها لقانون السبب والمسبب، ولا يصلح أن يبنى التاريخ على مجرد النقل إذا خالف العقل(غريب:1986،ص134).

فقد أعطى التاريخ مفهوماً واسع المدى يجعل بين برنامجة وبين البرنامج الذي يعين لعلم الاجتماع الحديث من صلة نسب، قال ابن خلدون:

"حقيقة التاريخ خبر عن الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم وما يعرض بطبيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتانس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من ملك والدول وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب (احمد:1986،ص153)، فابن خلدون كان رائداً فى اشارته الى الرؤية التاريخية للظواهر التاريخية وهى الاهمية التى تتعاظم على نطاق البحث السسيولوجى

4- اسلوب الاستقراء:

يعتمد على جمع الأدلة والبراهين التي تساعد على إصدار تعميمات محتملة الصدق والثبات، تعميمات يدرس الباحث أجزائها ومن ثم يصل إلى النتائج النهائية المتعلقة بموضوعية الدراسة، وإذا استطاع الباحث أن يصل إلى نتيجة عن طريق الاستقراء فمن الممكن أن يستخدمها كحجة علمية في استدلال استنباطي أو فلسفي، وهذا يدلل على أن البحث العلمي عند العرب يعتمد على الاستقراء والاستنباط أيضاً، فكل جانب يعزز الجانب الآخر، ويضيف ابن خلدون عن المنهج الاستقرائى بعد الانتهاء من جمع المادة حول ظاهرة البحث من خلال الملاحظة المباشرة والدراسة لمختلف الفترات التاريخية والمقارنة يمكن استخدام الاستقراء والتعليل والتحليل للوصول

إلى القوانين العامة التي تحكم الظواهر الاجتماعية المختلفة، وفى هذا السياق يقول ابن خلدون ينبغي أن يعمل الباحث على توضيح ما بين الظواهر والحوادث من اقتران سببي لان الظواهر ترتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول(الشامى:15،2002).

واستناداً إلى ما تقدّم يمكن القول : إنّ الفلاسفة والمفكّرين العرب أسهموا بفاعلية – خلال العصور الوسطى– في معالجة كثير من الظواهر الاجتماعية التي يمكن أن تدخل في الاهتمامات السسيوأنثروبولوجية.

خاتمه:

حاولت هذه الدراسة التعرف على المفاهيم الخلدونية وقد ظهر من خلال تناولنا أفكار ابن خلدون كما طرحها في أبواب وفصول المقدمة. إن مفاهيمه التي وضعها هي نفسها المفاهيم والمصطلحات التي تستخدم اليوم في دراسات الانثروبولوجيا وعلم الاجتماع الحديث بكافة ميادينه باعتبارها الاساس التي يقوم علية العلم الاجتماع ولو نفضل بان تعاد تسميته إلى علم العمران حسب تسميه ابن خلدون لما فيه من شمول وعمق لمفهوم العلم وظهر ذلك من خلال لمفهومة للعمران البشرى وقيام الدول وانهيارها وعوامل التغير من البداوة والحضارة .

كما أوضح تحليل ابن خلدون كيف نظر إلى النظام الاقتصادي والسياسي باعتبارهما من أهم الأنساق الاجتماعية في المجتمع البدوى / كما انه كان رائدا في دراسة اثر البيئة على االشخصيه بما تترك على االافراد من طبائع وقيم حسب الأقاليم المناخية؛ كما ان مفهومه للعصبية والتعصب الذي هو أساس البداوة وقيام الملك وزواله أتت بتحليل عبقري من خلال ما شاهدة الانثروبولوجيه.

كما تضمنت إسهامات ابن خلدون لعدد من المناهج حيث كان قبل يعتمد على الفلسفة

المراجع:

1- احمد غريب،(1986): تاريخ الفكر الاجتماعي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندريه.

2- الشكعة مصطفى،الأسس الإسلامية فى فكر ابن خلدون ونظرياته.

3-الجوهرى محمد،وآخرون(الانثروبولوجيا الاجتماعية, قضايا الموضوع والمنهج .

4- الجوهرى محمد(1996)، الانثروبولوجيا أسس نظرية وتطبيقات عملية،دار المعرفة الجامعية.

5- الشامى محمود،(2011): مبادى علم الاجتماع، جامعة الأقصى، غزة.

6- العابدين(1424هـ)،نظرية الدولة عند ابن خلدون، مجله المنار، ع 77.

7- ببلى احمد(1999):تاريخ الفكر الاجتماعي/ط4،مكتبة الانجلو المصرية.

8- جلبى عبد الرازق(2001):علم الاجتماع، تأليف مجموعة من الأساتذة الجامعات المصريه،www.kotobarabia.com

9- حسن عبد الباسط وآخرون،(1962): أصول علم الاجتماع، مطبعة لجنة البيان العربي

10- حامد السيد(1998)، القرابة البدوية العربية قراءة انثروبولوجية لمقدمة ابن خلدون .

11- حلس موسى،(1997): تاريخ التفكير الاجتماعي، جامعة الأزهر،غزة.

12- مقدمه ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع المؤرخ عبد الرحمن ابن خلدون،تحقيق وتعليق، صديق المنشاوى، دار الفضيله،القاهرة(14006هـ).

13- عودة محمود،تاريخ علم الاجتماع،ج1 مرحلة الرواد، دار النهضة العربية، بيروت.

14- لطفي عبد الحميد، (1977): علم الاجتماع،ط8، دار المعارف، الإسكندرية.

15- مبادئ علم الاجتماع،(1998): جامعة القدس المفتوحة.

16- مكاوى على محمد،(2002)،الانثروبولوجيا ودراسة التغير الاجتماعي،مؤسسة الأهرام، القاهرة.